العبادة و معناها

للامام الاكبر زعيم الحوزة العلمية السيد ابى القاسم الموسوى الخوئى
ترتيب: عبدالرحمن الطاهر السورتى

العبادة فى اللغة تأتى لأحد معان ثلاثة :

الأول : الطاعة، ومنه قوله تعالى :

ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين (٣٦ : ٦٠).

فان عبادة الشيطان المنهي عنها في الآية المباركة اطاعته .

الثانى : الخضوع والتذليل، ومنه قوله تعالى :

فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٢٣ : ٤٧).

أى خاضعون متذللون، و منه ايضا اطلاق ,,المعبد،، على الطريق الذى يكثر المرور عليه .

الثالث : التأله، ومنه قوله تعالى :

(قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) ١٣ : ٣٦

والى المعنى الأخير ينصرف هذا اللفظ في العرف العام اذا أطلق دون قرينة .

والعبد : الانسان وان كان حرا، لأنه مربوب لبارئه، و خاضع له في وجوده و جميع شؤونه، وان تمرد عن أوامره و نواهيه .

والعبد : الرقيق لأنه مملوك وسلطانه بيد مالكه، وقد يتوسع في لفظ العبد

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

فيطلق على من يكثر اهتمامه بشئ حتى لا ينظر الا اليه، ومنه قول أبى عبدالله الحسين عليه السلام : الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم و اذا محصوا بالبلاء قل الديانون(١) .

و قد يطلق العبد على المطيع الخاضع، كما في قوله تعالى : أن عبدت بنى اسرائيل : (٢٦ : ٢٢) أى جعلتهم خاضعين لا يتجاوزون عن أمرك و نهيك .

الايمان بالله يقتضي أن لا يعبد الانسان أحدا سواه، ولا يسال حاجته الا منه، ولا يتكل الا عليه، ولا يستعين الا به، والا فقد أشرك بالله و حكم في سلطانه غيره : وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه (سورة ١٧ : ٢٣)

العبادة والتأله :

مما لا يرتاب فيه مسلم ان العبادة بمعنى التأله تختص بالله سبحانه وحده، وقد قلنا : ان هذا المعنى هو الذى ينصرف اليه لفظ العبادة عند الاطلاق، و هذا هو التوحيد الذى ارسلت به الرسل وأنزلت لأجله الكتب :

قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله (٣ : ٦٤)

فالايمان بالله تعالى لا يجتمع مع عبادة غيره، سواء أنشأت هذه العبادة عن اعتقاد التعدد في الخالق، و انكار التوحيد في الذات، أم نشأت عن الاعتقاد بأن الخلق معزولون عن الله فلا يصل اليه دعاؤهم، وهم محتاجون الى اله أو

---

(١) البحار : منجرى عليه بعد بيعة الناس ليزيدبن معاوية ج ١٠ ص ١٧٩

آلهة اخرى تكون وسائط بينهم و بين الله يقربونهم اليه، و شأنه في ذلك شأن الملوك وحفدتهم، فان الملك لما كان بعيدا عن الرعية احتاجت الى وسائط يقضون حوائجهم، و يجيبون دعواتهم .

و قد أبطل الله سبحانه كلا الإعتقادين في كتابه العزيز، فقال تعالى في ابطال الاعتقاد بتعدد الآلهة :

لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (٢١ : ٢٢) وما كان معه من إله اذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون (٢٣ : ٩١)

و أما الاعتقاد الثاني — وهو انما ينشأ عن مقايسته بالملوك والزعماء من البشر — فقد أبطله الله بوجوه من البيان :

فتارة يطلب البرهان على هذه الدعوى، وأنها مما لم يدل عليه دليل فقال :

أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٢٧ : ٦٤) قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين (٢٦ : ٧١) قل هل يسمعونكم اذ تدعون . ٧٢ . أو ينفعونكم أو يضرون : ٧٣ . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ٧٤

و أخرى بارشادهم الى مايدركونه بحواسهم من أن ما يعبدونه لا يملك لهم شرا ولا نفعا والذى لا يملك شيئا من النفع والضر، والقبض والبسط، والإماتة والاحياء، لا يكون الا مخلوقا ضعيفا، ولا ينبغى أن يتخذ الها معبودا:

قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم (٢١ : ٦٦) . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. ٦٧ . قل أتعبدون من دون الله

مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا (٥ : ٧٦) ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه و كانوا ظالمين . (٧ : ١٤٨) .

وهذا الحكم عقلي فطرى شاءت الحكمة أن تنبه العباد عليه فى هذه الآيات المباركة، وهو سار في كل موجود ممكن محتاج، وان كان نبيا : واذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمي الهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، ان كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك، انك أنت علام الغيوب. (٥ : ١١٦) ما قلت لهم الا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربى وربكم . (١١٧) .

وأبطل هذا الاعتقاد مرة ثالثة، بأن الله قريب من عباده يسمع نجواهم و يجيب دعواهم، وأنه القائم بتدبيرهم و بتربيتهم، فقال تعالى : و نحن أقرب اليه من حبل الوريد . (٥٠ : ١٦) . أليس الله بكاف عبده (٣٩ : ٣٦) . أدعوني أستجب لكم (٤٠ : ٦٠) . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (٦ : ١٨) . قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شئ قدير (٣ : ٢٩) وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله (١٠ : ١٠٧)

وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير (٦ : ١٧) . الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر (١٣ : ٢٦) . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥١ : ٥٨) . ليس كمثله شئ وهو السميع البصير (٤٢ : ١١) . ألا انه بكل شئ محيط (٤١ : ٥٤)

فالله سبحانه غير معزول عن خلقه، و أمورهم كلها بيده، ولا يفتقر العباد الى وسائط تبلغه حوائجهم، ليكونوا شركاء له في العبادة، بل الناس كلهم شرع

سواء في أن الله ربهم وهو القائم بشؤونهم : وما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا (٥٨ : ٧) . كذلك الله يفعل ما يشاء(٣ : ٤٠) ان الله يحكم ما يريد (٥ : ١) .

و على الجملة، لا شك لمسلم في ذلك . و هذا ما يمتاز به الموحد عن غيره، فمن عبد غير الله واتخذه ربا كان كافرا مشركا .

العبادة و الطاعة :

لا شك أيضا في وجوب طاعة الله سبحانه، وفي استحقاق العقاب عقلا على مخالفته، و قد تكرر في القرآن وعد الله تعالى لمن أطاعه بالثواب و وعيده لمن عصاه بالعقاب .

و أما اطاعة غيرالله تعالى فهى على اقسام :

الأول : أن تكون اطاعته بأمر من الله سبحانه و باذنه كما فى اطاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم و أوصيائه الطاهرين عليهم السلام و هذا في الحقيقة اطاعة الله سبحانه، فهو واجب أيضا بحكم العقل : من يطع الرسول فقد أطاع الله (٤ : ٨٠) وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله (٤ : ٦٤) .

و من أجل ذلك قرن الله طاعة رسوله بطاعته في كل مورد أمر فيه بطاعته :

ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما (٣٣ : ٧١) يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم (٤ : ٥٩) .

الثانى : أن تكون اطاعة غير الله منهيا عنها، كاطاعة الشيطان واطاعة

كل من يأمر بمعصية الله، ولا شك في حرمة هذا القسم شرعا، و قبحه عقلا، بل قد تكون كفرا أو شركا، كما اذا امر بالشرك أو الكفر :

(ياأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين (٣٣ : ١) . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا (٧٦ : ٢٤) . وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما (٣١ : ١٥)

الثالث : أن تكون اطاعة غير الله مجردة لا أمر بها من الله ولا نهى، وهى حينئذ تكون جائزة لا واجبة ولا محرمة .

العبادة والخضوع :

لا ينبغى الريب فى أنه لا بد للمخلوق من أن يخضع و يتذلل لخالقه، فان ذلك مما حكم به العقل، و ندب اليه الشرع .

و أما الخضوع والتذلل للمخلوق فهو على أقسام :

أحدها : الخضوع لمخلوق من دون اضافة ذلك المخلوق الى الله باضافة خاصة و ذلك : كخضوع الولد لوالده، والخادم لسيده، والمتعلم لمعلمه، وغير ذلك من الخضوع المتداول بين الناس ولا ينبغى الشك في جواز هذا القسم مالم يرد فيه نهى كالسجود لغير الله، بل جواز هذا القسم مقتضى الضرورة، و ليس فيه أدنى شائبة للشرك، وقد قال عز من قائل :

(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة و قل رب أرحمهما كما ربيانى صغيرا (١٧ : ٢٤)

أفترى أنه سبحانه أمر بعبادة الوالدين، حيث أمر بالتذلل لهما ؟ مع أنه قد نهى عن عبادة من سواه قبل ذلك :

وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه و بالوالدين احسانا (١٧ : ٢٣) .

أم ترى أن خفض الجناح من الذل — كما تفعله صغار الطير — هو من الاحسان الذى أمرت به الآية الكريمة، و جعلته مقابلا للعبادة، واذا فلا يكون كل خضوع و تذلل لغير الله شركا بالله تعالى .

ثانيها : الخضوع للمخلوق باعتقاد أن له اضافة خاصة الى الله يستحق من أجلها أن يخضع له، مع أن العقيدة باطلة، وأن هذا الخضوع بغير اذن من الله كما فى خضوع أهل الأديان و المذاهب الفاسدة لرؤسائهم. ولا ريب فى أنه ادخال في الدين لما لم يكن منه، فهو تشريع محرم بالأدلة الأربعة، وافتراء على الله تعالى: فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . (١٨ : ١٥) .

ثالثها : الخضوع للمخلوق والتذلل له بأمر من الله وارشاده كما فى الخضوع للنبى صلى الله عليه وسلم ولأوصيائه الطاهرين عليهم السلام بل الخضوع لكل مؤمن، أو كل ماله اضافة الى الله توجب له المنزلة والحرمة كالمسجد والقرآن والحجر الأسود وما سواها من الشعائر الإلهية. و هذا القسم من الخضوع محبوب لله، فقد قال تعالى :

فسوف يأتى الله بقوم يحبهم و يحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين (٥ : ٤٥) .

بل هو لدى الحقيقة خضوع لله، و اظهار للعبودية له، فمن اعتقد بالوحدانية الخالصة لله، واعتقد أن الاحياء والاماتة والخلق والرزق، والقبض والبسط، والمغفرة والعقوبة كلها بيده، ثم اعتقد بأن النبى صلى الله عليه وسلم و أوصياءه الكرام عليهم السلام : (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون (٢١ : ٢٧) .

والتوسل بهم الى الله وجعلهم شفعاء اليه باذنه، تجليلا لشانهم و تعظيما لمقامهم، لم يخرج بذلك عن حد الايمان، ولم يعبد غير الله .

و لقد علم كل مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الحجر الاسود و يستلمه بيده اجلالا لشأنه و تعظيما لأمره . وكان صلى الله عليه وسلم يزور قبور المؤمنين والشهداء والصالحين، و يسلم عليهم، ويدعولهم .

ان الا عمال التى يقصد بها تعظيم شعائر الله، راجعة الى تعظيم الله والخضوع له والتقرب اليه سبحانه، والخلوص لوجهه الكريم، وأنه ليس فى ذلك أدنى شائبة للشرك، لأن الشرك — كما عرفت — أن يعبد الانسان غير الله . والعبادة انما تتحقق بالخضوع لشئى على أنه رب يعبد .

و صفوة القول : أن التقبيل و الزيارة وما يضاهيهما من وجوه التعظيم لا تكون شركا بأى وجه من الوجوه، و بأى داع من الدواعى، ولو كان كذلك لكان تعظيم الحى من الشرك أيضا، اذ لا فرق بينه و بين الميت من هذه الجهة .

السجود لغير الله :

إن الخضوع لاى مخلوق اذا نهى عنه فى الشريعة لم يجز فعله، وأن لم يكن على نحو التأله، و من هذا القبيل السجود لغير الله ، فقد أجمع المسلمون على حرمة السجود لغير الله، قال عز من قائل :

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر وأسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون (٤١ : ٣٧) .

فان المستفاد منه أن السجود مما يختص بالخالق، ولا يجوز للمخلوق .

وان العبد يجب عليه أن لا يرى لنفسه استقلالا فى امره بل يطيع مولاه

من حيث يهوى و يشتهي . فاذا أمره بالخضوع لأحد وجب عليه أن يمتثله و كان خضوعه حينئذ خضوعا لمولاه الذى أمره به .

كيف يتحقق الشرك بالله ؟

اذا نهي عن خضوع خاص لغير الله كالسجود، أو عن عبادة خاصة كصوم العيدين، وصلاة الحائض، والحج فى غير الاشهر الحرم كان الآتى به مرتكبا للحرام و مستحقا للعقاب، الا أنه لا يكون بذلك الفعل مشركا ولا كافرا فليس كل فعل محرم يقتضي شرك مرتكبه أو كفره .

وقد عرفت أن الشرك انما هو الخضوع لغير الله بما أن الخاضع عبد، والمخضوع له رب، فمن تعمد السجود لغير الله بغير قصد العبودية لم يخرج بعمله هذا المحرم عن زمرة المسلمين، فان الاسلام يدور مدار الاقرار بالشهادتين و بذلك يحرم ماله و دمه .

دواعي العبادة :

العبادة فعل اختيارى، فلابد لها من باعث نفساني يبعث نحوها، وهو أحد امور :

١ - أن يكون الداعي لعبادة الله هو طمع الانسان فى انعامه و بما يجزيه عليها من الأجر والثواب، حسبما وعده في كتابه الكريم : ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار (٤ : ١٣) . وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم (٥ : ٩) .

٢ - أن يكون الداعي للعبادة هو الخوف من العقاب على المخالفة :

انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم (١٠ : ١٥) . انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا (٧٦ : ١٠) .

وقد أشير الى كلا الأمرين في عدة من الآيات الكريمة :

تتجافى جنبوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا و طمعا (٣٢ : ١٦) . وأدعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين (٧ : ٥٦) . يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب و يرجون رحمته و يخافون عذابه . (١٧ : ٥٧) .

٣ ـ أن يعبد الله بما أنه أهل لأن يعبد، فانه الكامل بالذات والجامع لصفات الجمال والجلال . و هذا القسم من العبادة لا يتحقق الا ممن اندكت نفسيته فلم ير لذاته انية ازاء خالقه، ليقصد بها خيرا، أو يحذر لها من عقوبة، وانما ينظر الى صانعه وموجده ولا يتوجه الا اليه :

(ولأغوينهم أجمعين (١٥ : ٣٩) . الا عبادك منهم المخلصين . (٤٠) .

قال أمير المؤمنين و سيد الموحدين صلوات الله عليه : (ما عبدتك خوفا من نارك، ولا طمعا فى جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك (١)، وأما سائر العباد فتنحصر عبادتهم في أحد القسمين الأولين، ولا يسعهم تحصيل هذه الغاية . و بذلك يظهر بطلان قول من أبطل العبادة اذا كانت ناشئة عن الطمع أو الخوف، واعتبر في صحة العبادة أن تكون لله بما هو أهل للعبادة و وجه بطلان هذا القول : أن عامة البشر غير المعصومين لايتمكنون من ذلك فكيف يمكن تكليفهم به و هل هو الا تكليف بما لا يطاق ؟ !

أضف الى ذلك أن الآيتين الكريمتين المتقدمتين قد دلنا على صحة العبادة

---

(١) مرآة العقول، باب النية ج ٢ ص ١٠١

اذا صدرت عن خوف أو طمع . فقد مدح الله سبحانه من يدعوه خوفا أو طمعا، و ذلك يقتضي محبوبية هذا العمل وأنه مما أمر به الله تعالى و أنه يكفي فى مقام الامتثال . فالعبادة اما ناشئة من ادراك العابد كمال المعبود و استحقاقه العبادة بذاته وهي عبادة الأحرار، واما من ادراكه انعام المعبود و احسانه و طمعه في ذلك، وهي عبادة الاجراء، واما من ادراكه سطوته و قهره و عقابه وهى عبادة العبيد .